في سؤال الأمن اللغوي..

بقلم: أ. عزالدين مهوبي
رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة

ترتبط أسئلة الأمن اللغوي عمومًا بتهديد الكيان الفردي أو الجماعي، كون الأمن يتعلق أساسًا بغريزة البقاء وإن اتسعت دائرتها من الحفاظ على الحياة إلى الحفاظ على القيم التي تشكل تضامن جماعة ما واستمرارها. **فاللّغة هي أحد الروابط الرئيسة التي تضمن تماسك الجماعة والفرد**، وتمنحهما ذاتا واحدة يعبّر عنها بالـ(أنا) في مقابل الـ(نحن)، أي الآخر المختلف الذي يتمايز عنّا في شأن نعتقد أنه مقدّس، ولذلك كانت اللّغة باستمرار رهانا من رهانات الصّراع بين الجماعات، إما لتمدّ جماعةٌ ما نفوذها كما في المرحلة الاستعمارية بالجزائر أو بالتصدي لهذه الهيمنة كما في تمسّك الجزائريين بلغتهم لمنع تفتتهم وذوبانهم في بطن القوّة الغازية، فيمكن أن نشبّه اللّغة **بالخيط الناظم** لأفراد جماعة ما مثلما تنتظم حبّات العقد في خيط يربطها ببعضها، وتسعى القوّة الغازية إلى استلال هذا الخيط لتتناثر حباته المجتمعة ويسهل نظمها في نسق اجتماعي جديد، فتزول الجماعة المهزومة نهائيا وتتلاشى قيمُها لأنها فقدت الرّباط الذي يشد أفرادها بعضهم إلى بعض، وإلى ماضيها الذي يُشكل ذاكرتها ويحرّك وجدانها، ومن يفقد ذاكرته يسهل ابتلاعه في جماعة جديدة، ومن لم يكن له وجدان يتلاشَ كيانه وينتفِ وجوده الحضاري. يقول الفيلسوف اللغوي الألماني كارل فوسلر Karl Vossler:

«**إذا حُرِم الإنسان من موطنه على الأرض فإنه يجد موطنًا روحيًّا في لغته القومية**». ويذهب المفكر الألماني أرنست مورتيز آرنت Ernst Moritz Arndt إلى أنّ حدود الوطن الألماني الجغرافية تُعْرفُ بحدود اللّغة الألمانية.1

وتمثل اللّغة في الوقت الراهن شرعيةً للنضال السياسي، إمّا للانفصال عن جماعة سياسية كما في المطالب الكرديّة، أو لدى كيان الفلامان البلجيكي، أو للوحدة كما في المشروع القومي العربي الذي تأسس على الرباط اللّغوي كمشروعية تواجه المشروعية الدينية التي كانت ترتكز عليها السلطنة العثمانية لتبرير حكمها للشعوب العربية؛ أو هي أداة في يد القوى الاستعمارية السابقة للحفاظ على نفوذها في مستعمراتها السابقة، كما في الفرنكفونية.

وتعاني اللّغة العربية في هذا السياق من عدة مهددات؛ إما أنها تستعمل كأداة في الآلة الحربية الغربية لاختراق الجسم العربي تحت مبررات قد تكون مشروعة أو غير مشروعة كما في احتلال العراق؛ أو أنها تواجه تنامي اللغات العامية بتشجيع من الدّول القُطْريّة التي تبرر بقاءها خارج نطاق الدّولة العربية الواحدة بخصوصية لهجاتها.

والخلاصة، فإنّ النظام الدّولي في حالة سيولة، إذِ انهارت دولٌ مثل الصومال ونشأت أخرى مثل تيمور الشرقية، وعرفَ السّودان عملية تفكيك ممنهج بانفصال جنوبه خاصة. ومن دون شك فإن هذه السيولة ستتزايد مع التحول التاريخي الذي يعرف صعود آسيا وتدهور الغرب؛ وسيكون هذا التّحول مصدرًا لنزاعات كثيرة حول اقتسام مناطق النفوذ وإعادة رسم الخرائط، **وستكون اللّغة رهانا مفصليّا في الحروب**

القادمة؛ وإذا لم تخطط الجماعات لأمنها اللّغوي فإنها ستتفسّخ وتذوب في لُجَج الفيضان القادم.

وستكون الجامعة العربيّة معنية أكثر من غيرها بذلك، لأن شرعية وجودها لغوية، مستمدة من العربية، وستصوّب القوى المهيمنة نيرانها لهذا الرّباط حتى تضعفه فيسهل عليها التفريق بين العرب ومن ثمة القضاء عليهم، وتتجلّى هذه الحروب في المشاريع المعنية بالمنطقة العربية، فالمشروع الأمريكي حول الشرق الأوسط الكبير، ومن بعده الشرق الأوسط الجديد، **يتعمّد تسمية المنطقة العربية بالشرق الأوسط لنزع الطابع العربي عنها وجعل شرعية الانتماء إليها جغرافية، فيكون لإسرائيل الحق في الوجود مثل باقي الدّول العربية**، وليست حرب المسميات هذه إلا الجزء الظاهر من جبل الجليد في الصراع الذي تخوضه القوى الغربية من أجل التحكم في مقادير المنطقة العربية.

وهناك أيضًا مخطط إسرائيل الذي كشفت عنه وثيقة أصدرتها صحيفة «كيفونيم» في العام 1982 التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية، وتتضمّن مشروعًا لتفتيت الشرق الأوسط والعالمين العربي والإسلامي إلى دويلات. وتتضمن الوثيقة تفصيلاً دقيقا لتفتيت كلّ بلد عربيّ على حدة إلى دويلات على أسس دينيّة أو مذهبيّة أو طائفيّة.

إنّ محاولة تفكيك مفهوم «**الأمن اللّغوي**» في ضوء المتغيّرات العالميّة، من خلال المقاربات التاريخية والسياسية والإستراتيجية والثقافية، تنطلق من كون اللّغة هي العنصر الأكثر ارتباطا بالفرد والمجتمع والأمّة، وبالتاريخ والمصير.

إذا كانت قناعة الأفراد كبيرة في أنّ مظاهر الاستقرار في المجتمعات تتجلى في الأمن بمختلف أنواعه، الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

والعسكري، فلا يكون الاجتهاد كبيرا بإضافة الأمن اللّغوي لهذه الأنواع، غير أنّ الاهتمام بهذا الأمن لا يظهر إلا إذا تعرض مجتمعٌ ما إلى هزّات عنيفة تكون من أسبابها أسئلة الهُويّة والإنيّة والذات الجمعيّة، ويرتفع النقاش حولها إلى مستويات تصل إلى حدّ التصادم واستخدام القوّة في فرض الرأي، وهو ما أُطلق عليه «**الهويات القاتلة**».2

إنّ صراع ثقافات الدّاخل بين عديد المجتمعات غير المتجانسة إثنيًا وعرقيا كثيرا ما ينتهي إلى حروب أهلية مدمّرة؛ وتنجم عنه مآسٍ عديدة، كما كان الشأن بالنسبة ليوغسلافيا الاتحادية وما شهدته رواندا وبوروندي فيما عُرف بحرب البحيرات. ومن هنا «**فإنّ اللّغة من أهم مظاهر السيادة، وكم تمزقت بلادٌ حين تعددت لغاتها، بل لقد ظهرت مبادئ انشقاق وطنيّ في بعض الشعوب، وتصدعت صفوفها، وتسببت في إثارة الفتن والنّعرات من أبناء البلد الواحد مما تُشَاهَد آثاره المدمرة ماثلة أمام العيان، والأعداء لنارها يوقِدُون**».3

فالعالم اليوم، هو في **حالة انتقال من «الأمن المادي» إلى «أمن القيم»، أيْ من ضمان أمن الحدود الجغرافية إلى ضمان أمن الحدود اللّغوية**.

فالتحولات التي شهدها العالم تحت تأثير التشكل المتسارع للعولمة بمظاهرها الإعلامية وثورة الاتصالات والتكنولوجيا وشبكات الأنترنت وسيطرة الرأسمال الحرّ فيما يعرف باقتصاد العولمة العابر للحدود، **أدّت إلى إفرازات من بينها حالة الانغلاق التي جعلت كثيرا من الشعوب تنكفئ على نفسها وتسعى إلى الدفاع عن وجودها وكيانها وهويّتها بإقامة تحصينات، بعضها يبدو وهميًا، إزاء اللغات**

الأكثر انتشارا وتداولا في العلاقات بين الدول، بفعل الحاجة إليها اقتصاديا وتجاريا وسياسيا وإعلاميا، ولكونها الوعاء الحامل للمعرفة والتكنولوجيا.

فجدلية الخوف من اللّغة الوافدة وحماية لغة الهُويّة والانتماء أنتجت حالة «عداء» غير معلن، وأحيانا تكون أشبه بحرب معلنة على اللّغة الأكثر هيمنة كما هو الشأن بالنسبة للغة الفرنسية التي تتراجع بصورة واضحة أمام توسّع وامتداد اللّغة الانجليزية ، مما أدى إلى حالة «استنفار» على كل المستويات؛ وقد نبّه إلى هذا تقرير **هرفي بورج** 4 Hervé BOURGES الذي شخّص واقع اللّغة الفرنسية في العالم، وأبرز حالة التقهقر التي تعرفها إزاء اللّغة الانجليزية؛ **ودعا إلى عمل أكثر جرأة واندفاعا للحفاظ على موقع الفرنكفونية في العالم.**

هي هكذا أسئلة «**الأمن اللغوي**» التي تسعى لتحميض صورة اللغة وتفاعلاتها في التاريخ والجغرافيا.. وقلق الإنسان.

الهوامش:

1 - الرابط: مقال اللغة المثخنة:

http://www.islamonline.net/iol-arabi...48/alqawel.asp

2 - الهويات القاتلة: مصطلح وضعه الكاتب والروائي أمين معلوف، صدربالفرنسية عام 1998، بعنوان : Les idendités meurtières ترجمه إلى العربية جبور الدويهي، وصدرعن دار النهارللنشر في الطبعة الأولى عام 1999.

3 - الشيخ صالح بن حميد: داعية سعودي.

4 - هرفي بورجHervé BOURGES : سياسي وإعلامي فرنسي، ترأس لجنة للبحث في واقع الفرانكفونية وأصدر في يونيو 2008 تقريرا بعنوان «من أجل نهضة للفرانكفونية» بطلب من السيد ألان جوياندي كاتب الدّولة الفرنسي للتعاون والفرانكفونية.